سلسلة المحاضرات واللقاءات العلمية لفضيلة الشيخ (٨)

معوقات طلب العلم

لفضيلة الشيخ الدكتور
عبد السلام بن محمد الشويعر

الشيخ لم يراجع التفريغ

مُعَوِّقَاتُ طَلَبِ العِلْمِ

00966558883286
YouTube/alshuwayer9
alshuwayer9

للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛ يرجى المراسلة على البريد التالي:

tafreeghalshuwayer@gmail.com

سلسلة المحاضرات واللقاءات العلمية لفضيلة الشيخ

(٨)

معوقات طلب العلم

لفضيلة الشيخ الدكتور

عبد السلام بن محمد الشويعر

النسخة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

ثُمَّ أمَّا بعدُ:

-أيها الإخوة الأكارم-، فإننا في هذه الليلة المباركة ليلة الخميس من هذا الشهر المبارك الأغر شهر رجب، أحد الأشهر الحرم التي اختصها الله عَزَّوَجَلَّ بمزيد فضلٍ وإنعامٍ وتعظيمٍ للحسنات والسيئات فيها.

في هذه الليلة المباركة نجتمع دقائق تَقِلُّ عن الساعة بكثيرٍ - بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ - نتدارس أمراً مهمًا، وحديثًا شيِّقًا، لطالما اشرأبَّت النُّفوس إليه، ولطالما سهرت العديد من المُهَج الليالي الطِّوال في النظر فيه والتأمُّل.

إنَّ حديثنا الليلة حديثٌ عن العلم وفي العلم. هذا العلم هو ميراث الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-، وقد قال نبينا الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بنصيبٍ وافر**».

فالناس يتفاضلون بمعايير كثيرة أجلُّها عند الله عَزَّوَجَلَّ ما حوته نفوسهم من هذا العلم الذي هو ميراث الأنبياء.

ولذلك صح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث حُميد بن عبد الرحمن عن معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصحيح أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدين**».

ولما سئل - صلوات الله وسلامه عليه - عن خير الناس؟ قال: «**عن معادن العرب**

تسألونني؟ خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

فلذلك بنص حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن أخْيَر الناس وأكرمهم وأعلاهم منزلة وأرفعهم درجة إنما هم الذين كانوا منتسبين للعلم، وأعلاهم أنبياء الله -صلوات الله وسلامه عليهم-، ثم بعدهم الناس الأمثل فالأمثل.

ولذلك جاء في رواية عند أبي يعلى في المسند - وفي إسنادها رجلٌ فيه ضعف وهو أبو الوليد الموقَّري، ولكن معناها صحيحٌ كما قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» - أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ومن لم يفقه فلا خير فيه**».

من لم يكُ في قلبه شيءٌ من الفقه ولم يعلم شيئًا من العلم فإنه لا خير فيه البتة، وهذا معنى قول المأمون الخليفة العباسي المشهور: «**إن الناس رجلان**: رجلٌ طالبٌ لعلمٍ وآخر قانعٌ بجهل».

فالمرء كلما ازداد علماً وحرص على هذا الأمر وابتغاه وسعى في تحصيله؛ فإن هذا علامة خيريته.

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنك إذا رأيت الشاب الحَدَث يتتبع حِلَق العلم، ويقرأ في كتبهم، وينظر في دروسهم وما قالوه؛ فاعلم أن الله أراد به خيراً، بل هو بحديث نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خير الناس: «**من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»».

ومن العجب أنَّ هذا العلم مِنَحٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، فليس الناس بمحصِّلين له بالتمني ولا بالترجي، وإنَّما بمواهب منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأرزاق، ﴿**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**﴾ [**النحل**:٧١]، ومن أعظم ما يُرزق المرء به: العلم. ومع ذلك فكما أنَّ العلم رزقٌ

وهِبَة من الكريم جَلَّ وَعَلَا فإن هذا العلم -أعني العلم الشرعي- يحتاج إلى تعلُّمٍ واكتساب، ولذا جاء في الحديث عند الطبراني - بإسنادٍ حسَّنه بعض أهل العلم - أن نبينا الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحلم بالتحلُّم**».

فالمرء لا يولد عالمًا، ولا يخرج من بطن أمِّه فاهمًا فقيهًا، بل لابد له من التعب في هذا العلم، والرحلة في تحصيله، وبذل الغالي والنفيس لأجله، ثم بعد ذلك لا ينال المرء منه شيئًا إلا بتوفيقٍ من الله جَلَّ وَعَلَا وإعانة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

-نعم أيها الإخوة-، إن الحديث عن العلم وفضله ومكانة أهله حديثٌ تشرئبُّ له النفوس، وتسعد به الأرواح الصادقة؛ لأنه حديثٌ عن الصالحين، بل عن خير الصالحين، فإن خير الصالحين هم العلماء، لأنهم ورثة الأنبياء، ولذلك كانت العبادة القليلة ممن يعلم أحكام العبادة أفضل وأعظم أجراً عنده جَلَّ وَعَلَا ممن يفعلها تقليداً ومحاكاة.

ففي المسند من حديث عمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبر عنه أنه قال: «**إن المرء ليصلي وليس له من صلاته إلا نصفها، إلا ثلثها، إلا ربعها، إلا خُمْسها، إلا سُدْسها، إلا سُبْعها، إلا ثُمْنها، إلا تُسْعها، إلا عشرها**».

يقول أهل العلم: فالمرء يصلي وبجانبه صاحبه وأحدهم يعظم أجره أكثر من أجر صاحبه، بل ربما وصل إلى عشرة أضعافه، تم له الأجر والآخر إنما نال عشرها، والسبب في ذلك أمران:

- ما وقر في قلبه من الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

- وما فعله بجوارحه متابعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، **قال الفضيل بن عياض:** «أحسن العمل أخلصه وأصوبه، إن العمل إذا كان غير خالصٍ لم يُقبل، وإذا كان غير صوابٍ لم يُقبَل».

فالمرء إذا رفع يديه وصفَّ قدميه وحنى ظهره في ركوعه، ثم جعل وجهه وأعضاءه وأعظمه السبعة على الأرض كما أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قابضًا ليديه حتى تُقبَض، ناشراً ليديه حيث تُنشر في الصلاة؛ فإنما فعل ذلك سنة واقتداءً فعظم أجره.

ولذلك -أيها الإخوة- ذكر بعض أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أن عند ذِكْر الصالحين تتنزل الرحمات. هذا الأثر نُقِل عن سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ، **والسبب في ذلك:** أنه إذا ذُكِر العلماء والعلم والصالحون وصلاحهم اشرأبَّت النفوس وطمِعت أن تكون مثل هؤلاء، فقلَّدتهم وحاكتهم فيما هم فيه فاضلون لغيرهم من الصلاح والعلم والتقى والزهد، فحين ذاك تأتي البركة والخير الذي يعمُّ السامعين.

-أيها الإخوة-، ذكرت قبل قليل إن الحديث في ذلك طويل وهو شيِّقٌ في الوقت نفسه، ولكن لا نريد الحديث عن هذا الموضع، وإنما سأنتقل مباشرة لموضوعنا الذي اجتمعنا للحديث عنه لكي لا أضيع الوقت عليكم، وقد وعدت أن لا يجاوز الوقت شيئًا محدداً من الدقائق دون الساعة بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ.

قلت قبل قليل: إن هذا العلم مواهب من الله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما يُرزق المرء هذا العلم **بسببين:**

- بتوفيقٍ منه جَلَّ وَعَلَا وإعانة.

- وبسببٍ يكتسبه المرء بنفسه.

وإذا نظر المرء في عوائق هذا العلم وصوارفه ونواقصه؛ فإنه حينئذٍ سيستطيع أن ينفي عن نفسه الأمر الثاني وهو مسببات العلم التي يكتسبها بنفسه، وسنذكر اليوم -بأمر الله عَزَّوَجَلَّ- بعضًا من العوائق التي تصرف المرء عن تحصيل هذا العلم بشتى فنونه وسائر أنواعه وفروعه، وهذه العوائق التي سنذكرها يمكن أن نقسِّمها **إلى قسمين:**

۞ القسم الأول: **ما يتعلق بشخص طالب العلم الحريص عليه.**

۞ والقسم الثاني: **ما يتعلق بمسلكه وطريقته في تحصيل هذا العلم، وما هي الوسيلة التي استنَّها ليتحصل على هذا العلم.**

نبدأ بأول هذين النوعين وهو ما يتعلق بشخصه

فأول عائق يمنع المرء من تحصيل العلم:

أن يكون المرء متكبراً فيه،

وقد ثبت في البخاري عن مجاهد بن جبر تلميذ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «لا ينال العلم مستحٍ ولا مستكبر».

من تكبَّر وتعظَّم في نفسه على ألا يطلب العلم ولا يجلس في مجالس أهله، ولا يصاف من طلبوه وقصدوه؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يرزقه العلم أبداً.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إن المرء إذا تواضع -وأشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده الكريمة هكذا ينزِّل يده- رفعه الله عَزَّ وَجَلَّ»** وأشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده هكذا، **«وإن المرء إذا تعظَّم وتكبَّر خفضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»**.

كل من تواضع في شيءٍ رفعه الله فيه، وكل من تكبر في شيء خفضه الله عَزَّ وَجَلَّ فيه، من تكبَّر في طلب العلم وتحصيله فإنه لا يُرزق منه شيء، **والسبب في ذلك**: أن كثيراً ممن يطلب العلم إنما هم من أبناء الفقراء كما ذكر ذلك أبو عبد الله العباسي أو أبو حيان التوحيدي. نسيت الآن.

فمن يكون من أهل الشرف وأهل الخير والمال فإنه يرى من المنقصة في حقه والغضاضة في شأنه أن يجالس مثل هؤلاء فيجلس معهم، ولذلك كان أهل الشرف عند

الأوائل عندما يريدون أن يطلبوا العلم أو يرووا الحديث يطلبوا المحدث أن يأتي إليهم، فكان كثير من المحدثين يرفض **ويقول**: إنما يكون العلم في المسجد، فمن أراده فليأت.

وهذه القصص فيها كثيرة، ولكن يكفينا قول عمر بن عبد العزيز -وهو في البخاري أيضـًا معلَّقـًا- أنه قال: «**لا تزال هذه الأمة في خيرٍ ما كان العلم في المساجد**».

فهو ليس حكراً على أحدٍ دون أحد، ليس مخصوصـًا به عِلْية القوم دون من هم من أواسطهم، وليس مضنونـًا به عن أحدٍ دون أحد، بل هو للكل.

وانظر -أيها الموفق- لابن عم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أعني عبد الله بن عباس- الذي سمَّاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَبْر هذه الأمة وتُرجمان قرآنها، فإن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كان له في طلب العلم شأنـًا عظيمـًا، فيأتي مرة فيجلس على بيت معاذ بن جبل، فيجلس عند باب بيته فيطيل معاذٌ الخروج فتغلب ابنَ عباسٍ عينُه فينام عند عتبة بيته، فلما يخرج معاذٌ يجد ابن عباس عند الباب وقد توسد عتبته، فيقول له: «يا ابن عم رسول الله، لو طرقت الباب لخرجت. قال: إنا كذلك نفعل بعلمائنا»، ثم يمشي معاذٌ فيأتي ابن عباس معه فيمسك بزمام ناقته فيقول: «يا ابن عم رسول الله، لا تفعل ذلك. قال: إنا كذلك نفعل بعلمائنا».

ووالله أقولها غير حانثٍ عن علمٍ ومعرفة وخبرٍ بالأوائل والأواخر: أن من أذلَّ نفسه في طلب العلم وأنقص قدرها عند أهل العلم وبذلها البذل التام ولم يتكبر لكلمة قيلت له، أو يمتنع من حضور لشيءٍ مُنِع منه فإنه الذي يُوفَّق وإنه الذي يُرْزَق.

وكان أحد مشايخنا قد مات قريبـًا - وهو معروف - يمتحن بعض طلابه بالكلام

ليعرف الصادق من الكاذب، فيعرف من يصبر ومن لا يصبر، فيقول: هذا تواضع للعلم وهذا لم يتواضع له، فلا يقبل عليه.

فالمقصود: أن الحديث في هذا الأمر طويل، ولكن نكتفي من القلادة ما أحاط بالعنق، وكما قال مجاهد: «لا ينال العلم مستحٍ ولا مستكبر»، وهنا في كلمة (مستحٍ) لنعرف أن الحياء كله خير، فإن الحياء لا يأتي بشرٍّ أبداً، وإنما قصْد مجاهدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال: «لا ينال العلم مستحٍ ولا مستكبرٍ» **أي:** الكِبْر الذي أُلْبِس لبس الحياء، فإن الشيطان يدخل على بعض الناس ويمنعه من بعض الأفاعيل بحجة الحياء، وإنما هو حقيقةً مُنِع بحجة الكِبْر، فكيف يكون ذاك الرجل الذي بلغ من العمر فوق الأربعين يجلس في حلقة إنما يجلس فيها من دون العشرين؟ هذا كِبْر، ليس حياء. كيف يجلس المعلِّم مع طلابه في حلقة قرآنٍ أو نحوها؟ هذا كِبرٌ، ليس حياءً. كيف يجلس المدير مع موظفيه ومن هم دونه؟ هذا كبرٌ وليس حياءً.

المقصود من هذا: أنَّ الكبر من أعظم عوائق العلم.

ويتعلق بالكبر أيضـاً -الكبر كما تكلمنا قبل قليل عن الكبر- في تحصيل العلم؛ فإن الكبر في بذله من عوائق تمامه.

فإن من أعظم ما يزيد الله عَزَّوَجَلَّ به علم المرء وينمِّيه له أن يبذله، وأن يعلِّم غيره إياه، ولذلك فإن الإمام أحمد لما سُئِل- لما قال أولاً: لا ينبغي لأحدٍ أن يطلب العلم إلا بنية خالصة- قالوا: ما النية؟ قال: أن ينفي الجهل عن نفسه وأن يعلِّم غيره. فالعلم النية الصادقة فيه أن تعلِّم غيرك، ولذلك كل شيءٍ زيادته في زكاته، وزكاة العلم تعليم النَّاس فيه، ومن

تكبُّرٌ في تعليم الناس لم يُبارَك له في علمه، وإنما كان إلى نقصٍ لا إلى نماء.

ويتكبر المرء في تعليم الناس حينما يأنف أن يعلِّم أناسًا من صغائر الناس ومن عوامِّهم، ويقول: إنما أنا لا أعلِّم إلا الأكابر فحسب. هذا رجلٌ لم يتواضع في العلم.

الآخَر: من لا يجلس إلا أن يُجْلَس له، فإذا جلس له العدد القليل امتنع، وإذا جلس عنده العدد الكبير جلس، ذاك أيضًا متكبِّرٌ في بذله.

فالمقصود: أن المرء يحرص على ألا يتكبر في العلم حال طلبه أو حال بذله.

❁ الأمر الثاني من عوائق العلم:

أن يستعجل المرء في تحصيله.

ومن عجائب هذا العلم: أن العلم الشرعي لابد أن يستمر مع المرء إلى وفاته، فلذلك فإن الإمام محمد بن جريرٍ الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما حضـرته الوفاة سـمع حديثًا يُروى عنده، فأخذ دواة وقلمًا وورقًا ثم كتب هذا الحديث الذي سمعه وهو على فراش موته.

وهذا يدلُّنا على أن العلم يستمر مع المرء، ومن ظنَّ أنه قد اكتفى وأنه وصل قمة الجبل فهو في الحقيقة إنما هو إلى نقص، فما بعد القمة إلا الانحدار.

أنا أقول: إن من استعجل العلم بسرعة لم يتحصل عليه، ولذلك يقول محمد بن شهاب الزهري - الإمام الجليل التابعي الذي عليه هو مع ثلاثة من علماء الحديث عليهم مدار جُلِّ الأحاديث المروية عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كما قال علي بن المديني** -: يقول محمد بن شهاب: «هذا العلم إن أخذته جملة ذهب منك جملة، وإن أعطيته كُلَّك أعطاك بعضه».

العلم إن أخذته جملة في يومٍ واحد ذهب منك، لا يمكن أن يُسكَب العلمُ سكبًا في فِيِّ امرئٍ أبداً، لا يمكن، لا يمكن أن يتناوله كما يتناول الطعام في جلسة ثم يمسك. أبداً، بل لابد له من سهر ليالٍ وبذل أوقاتٍ وذهاب عُمْرٍ وبذل شيءٍ كثيرٍ لأجل هذا العلم، فلذلك من ظن أنه سيُرزق العلم في شهرٍ أو شهرين أو ثلاثة أو في سنة أو أكثر فإنما ذاك رجلٌ لم يُوفَّق، وإنما جاءه عائقٌ من عوائق العلم فاستعجل.

ومن القواعد المقررة عند الفقهاء -وهي قاعدة فقهية-: أن من استعجل شيئًا قبل أوانه عُوقب بحرمانه.

فمن استعجل في تحصيل العلم فإنه يُعاقَب بعدم تحصيله، وقد قال أبو تمَّام:

من لي بمثل سيرك المُدلَّل تمشي رويداً وتجي في الأول

فمن مشى على طريقة أهل العلم واستن بسننهم ومشى بمسلكهم متبعًا الطريقة المثلى في ذلك؛ فإنه واصلٌ بأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

وسأذكر أثراً - والآثار كثيرة - **أو صورة من صور الاستعجال في العلم**:

۞ **من صور الاستعجال في العلم**: أن يكون المرء حريصًا على أن يتصدر وعلى أن يفتي وأن يتكلم، وهذا علامة استعجاله فإنَّ المرء ليعلم أن من علامة توفيق الله عَزَّوَجَلَّ للعبد: أن يبتعد عن التصدر وعن الإفتاء.

يقول ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدركت سبعين من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم إذا سئل المسألة أحالها لصاحبه حتى تعود للأول». سبعون من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم إذا سئل المسألة أحالها لغيره لمعرفته بضعف نفسه وعجزه عنها.

ولذلك يقول أهل العلم: «كلما زاد علم المرء قلَّ إنكاره وعرف قدر نفسه وكثر ورعه».

وقد جاء أنَّ الإمام أحمد كان يُسأل كثيراً عن المسألة تلو المسألة، فيقول: لا أعلم، لا أعلم، لا أعلم. فقيل لتلميذه أبي بكر الأثرم: لم أحمد كان يكثر من (لا أعلم)؟ قال: لعلمه بالخلاف.

فالمرء إذا وُفِّق لخشية الله عَزَّوَجَلَّ وعدم الحرص على ذلك فإنه علامة توفيقه.

وأذكر هنا أثراً -لكي لا نُطيل- فإن الرامهرمزي في كتابه «المحدث الفاصل» عقد باباً **قال:** «باب ما جاء أن أهل الحديث كانوا لا يحدثون إلا أن يبلغ المرءُ منهم أربعين سنة».

وذكر ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً من المحدثين يُدعى عبد الله بن الحجاج قال: دخلت بغداد سنة ثلاثٍ ومائتين من هجرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسألت عن أحمد بن حنبل فقالوا: هو في بيته معتزلٌ لا يحدث الناس. قال: فذهبت إلى أصبهان ثم جئت في السنة التي تليها، فدخلت بغداد فسألت عن أحمد فقالوا: هو متصدرٌ في جامع المنصور، الجامع الكبير في البلد. وإذا حلقته أكبر الحلقات. قال أبو الفرج في "المناقب": «وفي هذه السنة تمَّ أحمد أربعين عاماً، وقد كانت سنة المحدثين أن لا يحدثوا قبل الأربعين».

أنا قصدي من هذا: أن المرء لا يستعجل تحصيل العلم في نفسه، ولا يستعجل أن يتصدر فيه، وإنما يعلِّم من تحت يده من أهل بيته وقراباته وتلاميذه وهكذا إلى أن ييسر الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ الأمر الثالث من أعظم عوائق طلب العلم:

أن يرغب المرء في علمه بالدنيا وأن يرغب عن الآخرة.

إن من أعظم العوائق أن يقصد المرء بعلمه الدنيا، ولذلك من طلب العلم ليماري به العلماء ويجادل به السفهاء لم ينل منه حظًّا، وإنما هذا العلم يجب أن يُطلَب لله عَزَّوَجَلَّ.

وقبل أن نتكلم عن بعض صور طلبه للدنيا وما يتعلق بها؛ يجب أن نتكلم عن مسألة: كيف تكون النية في العلم؟ فقد ذكرت لكم قبل قليل أن أبا بكر المروذي أو الميموني -أحدهما- لما سأل الإمام أحمد حينما قال: لا ينبغي لأحدٍ أن يطلب العلم إلا بنية. قال: ما النية في العلم؟ قال: أن تنفي الجهل عن نفسك، وأن تعلِّم غيرك.

إذا نوى المرء بطلبه العلم أن ينفي الجهل عن نفسه ليصلي ويزكِّي ويصوم ويحج ويبيع ويشتري على هدىً وسنة وتوفيق فهذه هي النية السليمة، وإن نوى أن يتعلم النافلة من هذا العلم مما لا يحتاجه هو، ولكن ليعلِّم غيره من سائل أو تلميذ أو قريب أو أهل؛ فهذه هي النية الصالحة.

ولذلك البركوي في أول كتابه لما ألَّف كتاباً عن «أحكام الحيض للنساء» قال: وهذا الكتاب يجب أن يتعلمه الرجال ليعلِّموا أهلهم. مع أن الرجل لا يحتاج أحكام الحيض والنفاس، ولكن ليعلِّموا أهلهم. وهو من فقهاء الحنفية في القرن العاشر الهجري.

إذن المقصود: أن أمر النية سهلٌ جداً وليس صعباً البتة، وإنما صعَّب المتأخرون أمرها وشددوا فيها بينما هي سهلة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن لأصحابه كما في حديث

محمود بن لبيد لما سألوه عن المرء قد يقع في نفسه من الرياء ونحوه، فقال -كما عند البيهقي-: «**قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم**».

ووالله ما سأل أحدٌ الله عَزَّوَجَلَّ الإخلاص إلا رُزِقه، لأنك تسأله في حال إخلاص، في حال قُرْب من الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا دليلٌ عليه، ولكن انتبه! هنا مسألة: هناك فرق بين الرياء والتشريك في النية، الرياء هو الذي يُنفى عنك إن سألت الله عَزَّوَجَلَّ، وأما تشريك النية فهو ينقص الأجر، والحديث في تشريك النية طويل، ولكن إن أمكن بعد انتهاء الوقت ذكرته على سبيل الاختصار.

من رغبة الدنيا في العلم: أن يتعلم المرء المسألة ليغالب فلانًا، أو ينتصر لكلمةٍ قالها قبل أن يتعلم هذه المسألة.

بعض الناس يتكلم في مجلس بكلمة ويذهب لرأيٍ فقهيٍ -مثلاً- فيأتي له امرؤٌ ليعترض عليه فيذهب ليبحث هذه المسألة، ليس قصده الوصول للحق، ولا تعليم الناس الهدى والسنة، وإنما قصده أن ينتصر على غيره، هذا إنما تعلم لغير الله ليُماري غيره ويجادل غيره.

وهنا مسألة مهمة جداً: أن بعض الناس يقول: أنا نيتي ليست لله عَزَّوَجَلَّ.

إذن سأترك العلم، نقول: هذا الرجل زاد مع جهله حُمقًا، فإن من فعل الفعل لأجل الناس رياءً، ومن تركه لأجلهم فقد وقع في الشرك. وهذه قاعدة مشهورة على تقييدات فيها.

فلذلك أنت أولاً من قال أنك لا تريد الله عَزَّوَجَلَّ بالعلم؟ بل إن هذه النية عندما قلت

هذا الشـيء يدل على أن في النفس شـيء، مجرد سؤال الله عَزَّوَجَلَّ في سـجودٍ وفي خلوة ينفي عنك الرياء، لكن نَعَم؛ قد يكون هناك نوع تشريك، تشريك في النية، التشريك في النية ينقص الأجر، مثلما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديث أبي سعيد: «**وابتغِ مؤذنًا لا يأخذ على أذانه أجراً**»، وفي حديث عبد الله بن عمرو في مسـلم: «**ما من غازية يغزون فيغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم**»، فأعمال القربات إذا أُخِذ عليها أجرٌ أو أُخِذ عليها جُعْلٌ نقص الأجر ولم يعدمه بالكلية، هذا معنى التشريك في النية: ينقص الأجر ولا ينفيه بالكلية.

فبعض الناس لجهله ظن أن هذا عدم النية فتركه، وما من امرئٍ في الغالب يبتدئ بطلب العلم إلا وفي نفسـه طلبـًا من الدنيا، فكثيرٌ من الناس إنما يطلب العلم في أول أمره لأنه رأى زيداً أو عمراً من المشـايخ الكبار الذي إذا جلس عُظِّم وإذا تكلَّم سُـمِع له فأُعْجِب به فنظر إليه فتمنى أن يكون مثله، هذا في النفس فيه شـوي، لكن ليس نافيـًا للإخلاص بالكلية، ولكن إن طلبت العلم لله عَزَّوَجَلَّ فثِق أنه ستصفى النية بعد ذلك.

يقول سفيان بن عيينة أبو محمد المكي -عليه رحمة الله-: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى الله أن يكون إلا له».

عندما تسـتمر في طلب العلم وتصـدق فيه ويوفقك الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك؛ فإنك حينئذٍ ستخلص نيتك ولا شك. ويبقى مسألة التشريك والأجور لها حديثٌ آخر غير هذا الأمر.

العائق الرابع: أن يظن المرء في نفسه أنها هي التي تكتسب، ولا ينظر لعون الله عَزَّوَجَلَّ،

وكل من نظر لنفسه وأُعجب إليها وُكِل إليها، ومن استعان بالله عَزَّوَجَلَّ وسأله الهداية والرشاد كان الله عَزَّوَجَلَّ معه، وانظر لنبينا الأكرم -صلوات الله وسلامه عليه- وهو الذي يأتيه الوحي صبحاً وعشياً كان يسأل الله عَزَّوَجَلَّ في دعائه في الليل كما في صحيح مسلم: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل**» الحديث الذي تعرفونه. «**اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**».

إن المرء يجب عليه أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ كل يومٍ أن يرزقه العلم النافع أولاً، وأن يرزقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الهداية في هذا العلم والهداية فيه.

وقد قيل في سؤال المؤمنين جميعاً الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الفاتحة: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [**الفاتحة:٦**] أن الصراط المستقيم هو القرآن، وأنه الإسلام، وأنه الهدى والسنة والصواب.

وهذه المعاني لها أوجه لمعنىً واحد، لا تعارض بينها، وإنما معناها واحد.

فأنت عندما تقول: (اهدنا الصراط المستقيم) اهدني لكل حق، فأنت تسأل الله عَزَّوَجَلَّ دائماً العلم والهداية فيه، وقد كان كثيرٌ من أهل العلم - نُقِلت عن أحمد والشيخ تقي الدين ابن تيمية وغيرهم أيضاً من الأوائل قبلهم- يسألون الله عَزَّوَجَلَّ فيقولون: «اللهم يا معلم آدم علِّمني، ويا مفهِّم سليمان فهِّمني».

بل جاء أن الشـيخ تقي الدين كانت إذا أشـكلت عليه المسـألة ذهب للمسـاجد المهجورة، لأنها بيت من بيوت الله، ومهجورة ليس فيها أحد، فيكون المرء أقرب لله عَزَّوَجَلَّ.

دائمـًا الواحد يكون أقرب لله عَزَّوَجَلَّ إذا كان بعيداً عن الأعين، ولذلك دائمـًا العبادات التي يجد فيها المرء لذَّة ما كانت من عبادات السـر: قيام الليل، الزكاة التي ينفقها المرء في سرِّه، غض البصر في النظر، كلها جاءت الأحاديث بأن فيها كسبـًا للذة العبادة.

فكان يأتي هذه المساجد المهجورة ويكثر من السجود والتضرع ويقول: اللهم يا معلِّم آدم علِّمني، ويا مفهِّم سليمان فهِّمني.

ويقول الشـيخ تقي الدين أيضـًا في كتابه، له رسـالة في تفسـير آيات الربا، قال: «وهذا الكلام الذي كتبته كتبته بعد طول تضـرُّعٍ لله عَزَّوَجَلَّ» طول تضـرع له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يهديني الله عَزَّوَجَلَّ فيه.

والإمام البخاري ما وضع حديثـًا في كتابه إلا وصلى ركعتين لله عَزَّوَجَلَّ واستخار فيهما، والمرء إذا اسـتخار ماذا يقول؟ إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشـي فاكتبه لي. هل أكتب هذا الحديث أم أتركه؟ كان يستخير الله عَزَّوَجَلَّ فيه.

فانظر لعجيب شأن أولئك، فإنهم كان لهم مع الدعاء أمراً عجيبـًا، حتى ألَّف السخاوي تلميذ ابن حجر كتابـًا كاملاً فيمن شـرب ماء زمزم لأجل العلم، فإنه قد ثبت من حديث جابر أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**ماء زمزم لما شُرِب له**».

فبعضـهم شـرب ماء زمزم ليحدث في مسـجد فلان، وبعضـهم شـرب ماء زمزم ليُحدَّث

من فلان، وبعضهم شرب ماء زمزم ليحسن التصنيف، وغير ذلك من الأخبار الطويلة في هذا الباب.

فالمقصود: أن المرء يجب عليه أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ العلم، اسأل العلم، فهو سبحانه الواهب له جَلَّوَعَلَا وحده.

❁ **الأمر الخامس**: **وهو مسألة أن من أعظم عوائق العلم وعدم تحصيله: ألا يعمل المرء به، فإذا لم يعمل المرء بالعلم الذي تعلَّمه فإنه يكون سببًا لعدم البركة فيه.**

يقول أبو عبد الرحمن السُّلَمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يحفظوها ويعلموا ما فيها من الحلال والحرام ويعملوا بها»، المرء إذا عمل بعلمه فهو الموفَّق، ولذلك جاء من حديث طريف بن عبد الله وروي مرفوعًا من حديث ابن مسعود وغيره أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنما العلم الخشية**»، الخشية لله عَزَّ وَجَلَّ، فمن عرف أن هذه الصورة صورة من الربا، أو أن هذا التعامل تعامل من الرشوة فتركه بعد علمه فهذا الذي يُبارَك له في علمه، هذا الذي يُبارك له في علمه، لأنه علم فترَك، علم فعمل.

يقول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ينبغي لصاحب القرآن أن يُعرَف بليله إذا الناس نائمون، ويُعرف بصومه إذا الناس مفطرون، ويُعرف بسكوته إذا الناس خائضون».

صاحب العلم يجب أن يُعرف، يجب أن يظهر على آثاره، إذا لم يظهر على آثاره فيجب عليه أن يراجع نفسه، معناه: أن العلم الذي تعلَّمت فيه مشكلة.

قيل لمزاحم: إني دخلت بلداً فمن أعلم أهل البلد؟ قال: أتقاهم.

كلما كان المرء تقيـًا لله عَزَّ وَجَلَّ -وأعني بالتقي من يعمل بعلمه- فهو العالم، هو العالم حقيقة.

وأما قول بعضهم: (خذ علمي ولا يضررك تقصيري) هذا من باب التواضع منه، ولكن يجب على العالم وطالب العلم عمومـًا أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ، وليعلم أن الشأن عليه أعظم من الشأن من غيره، الناس ينظرون لصلاتك إذا كنت إمامـًا، وينظرون لمحافظتك على السنة إن كنت منسوبـًا للعلم وطلبه.

فالمقصود: أنه يجب على المرء أن يُعنى بالعمل بالعلم لكي يثبت وألا ينقص وتذهب بركته.

❁ الأمر السادس وبه أختم الأمر الأول:

ألا ينشغل المرء عن العلم،

العلم إن أعطيته كُلَّك أعطاك بعضه، العلم هذا أمره عجيب، فإنه يُنسى، يُنسى هذا العلم، ولذلك من الألفاظ التي يذكرها الفقهاء يقولون: إن الفرائض علم ساعة. علم ساعة واحدة، إذا ما راجعته نسيته بعد ساعة. كثير من العلوم الشرعية تُنسى ما لم تراجع.

يقولون سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وهو من أئمة الحديث – لما توفي فكُّوا نطاقه، حزامه الذي يربط به إزاره، يريدون أن يغسلوه، ليس عنده بيت، ليس عندهم أي شيء، فلما فكوا نطاقه وجدوا فيها أطراف للحديث، أطراف يراجع فيها الحديث.

ولذلك الحقيقة أنت تعجب من بعض طلبة العلم يقول: أنا حافظ للقرآن. متى حفظته؟ لما كنت في ثالث متوسط، لما تخرجت من تحفيظ القرآن، ومن بعدها إلى يومك ما راجع القرآن، هذا ليس بحافظ، يكذب، أقول: لست بحافظ، الحافظ الآن الذي يراجع.

وكان الحافظ ابن حجر كما نُقِل أو هو نقله عن نفسه في «ذيل الدرر» قال: جلست في مجلسٍ فجاءنا رجلٌ يزعم أنه يحفظ الصحيحين. فقال الحافظ: لا يوجد من يحفظ الصحيحين أبداً. فجلس يقول: أنا أحفظ الصحيحين و.. و.. و.. فقال له الحافظ - والحافظ ابن حجر هو الذي قُرِن باسمه الحفظ دون من عداه من أهل العلم -: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»** والحديث معروف. وإن في الصحيحين زيادة على هؤلاء السبعة أربعة أو خمسة –نسيت أنا– قال: فتلكلك ولم يستطع

أن يأتي بحديث. فقلت: لست بحافظ. فقمت من المجلس فقالوا لي: اذكرهم. قلت: إن المقام مقام اختبار لا مقام مذاكرة. ثم ألَّف فيه مصنف فجمع فيه الذين يظلهم الله عَزَّوَجَلَّ زيادة على هؤلاء السبعة.

فالمقصود: أن بعض الناس يظن أنه وصل لمرحلة خلاص حفظت إذاً ليس بعدي أحد، ولم يصل إلى ما وصلته أحد. واعلم أن هذا العلم إن لم تستمر عليه يُنسى، يُنسى بسرعة، ولذلك لابد من مراجعته، لابد من مذاكرته، لابد من مجالسة أهل العلم فيه واستذكاره، وقد جاء في حديث رواه مالك بلاغًا -وبلاغات مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلها وُصِلت إلا أربعة، كما قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر، منها هذا الحديث لكن وصله ابن الصلاح أو وجد إسناده عند محمد بن طاهر القيسراني في الأفراد- أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إني لأُنسَّى لأسُنَّ**» **يعني:** ينسى الشيء لأسن لغيري. فما أُنسيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو من باب السُّنِّيَّة.

أنا أقول هذا بين يدي حديثٍ سأذكره لكم، فإن أُبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أو غيره من الصحابة قرأ عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية فقال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد ذكَّرتني آية**»، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو النبي الأكرم نُسِّي هذا لكي يُسن لقومه يعرفوا أنه لابد فيها من المراجعة، ولابد فيه من المذاكرة للعلم وألا يعتد على أمرٍ قد تحصَّله ولا يزيد عليه.

وهنا فائدة تتعلق بهذه المسألة وهو عدم الانشغال: أن كثيراً من أهل العلم يقولون: إن المرء إذا طلب العلم في حداثة سِنِّه وأول عمره فإنه يوفَّق أكثر بكثيرٍ ممن طلبه على كِبَر. وليس طبعًا على سبيل الكل، وإنما على سبيل الأغلب، لأن المرء في صغر سنِّه يكون

صافي الذهن، وأمامه عُمُرٌ طويل، وقليل المشاغل، قد يكون الأكبر أصفى ذهنًا لكنه كثير المشاغل، عنده دوام، عنده زوجة، عنده أبناء، عنده وظيفة، عنده وعنده وعنده، أما الصغير فإنه دون ذلك.

يقول السيوطي في مقدمة الأشباه والنظائر لما ناظر بعضهم، قال: وليس -يقصد نفسه- من طلب العلم صغيراً كمن طلبه كبيراً. طبعًا ليس كُلِّيًا، فإن ابن حزم ما طلب العلم إلا على كِبَر، وأبا بكر القفَّال ما طلب العلم إلا على كِبَر بعد الأربعين، فكان تلامذته يسمونه بالمراوذة نسبة له، يعني أوجد طريقة عند فقهاء الشافعية من الطرق الكبار إحدى الطريقتين: خراسانيون وعراقيون، والخراسانيون هم المراوذة، فيُنسبون لأبي بكر القفال مع أنه ما طلب العلم إلا بعد الأربعين وقد كان قفَّالاً يصنع الأقفال للناس.

وقد جاء أن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لوددت أن يُبَث هذا العلم بين الناس ولا يُنسب لي منه حرف».

إن من أعظم البخل: البخل بالعلم. بعض الناس قد يتحصل على فائدة في كتاب، أو معلومة وقف عليها، وليس ببدع، العلم موروث، موجود عند من قبلك، لا يمكن أن تأتي بفهمٍ لم يفهمه الأوائل، أو بشيءٍ لم يأت به الأوائل، لكن ربما غاب عن كثيرٍ من الناس. فإن بخل به وضَنَّ وشحَّ فإنه مسكين، لا يُنقل عنه العلم فيُعرف بركته، ويصبح في قلبه حبيسًا فتذهب بركته عنه.

من أعظم البخل: البخل بالعلم على طلابه الذين يطلبونه، بعض الناس لا يعطي العلم أيَّ أحد، وإنما يعطيه من رغب من عِلْيَة القوم أو طلبة الدراسات العليا ويقول: من كان

دون فإنه لا يســتحق. لا، هذا من البخل بالعلم، وهو من أعظم الآفات في عدم البركة في العلم وتحصيله.

هذه تقريباً ست أو سبع مسائل من العوائق التي تتعلق بشخص طالب العلم.

﴿ وسأذكر القسم الآخر من العوائق وهي العوائق التي تتعلق بمسلك العلم وكيفية طلبه، فإن كثيراً من الناس يكون مخلص النية صادقًا فيها، وُجِدت فيه الصفات السبع أو الثمان التي ذكرتها قبل قليل كاملة لكنه لا يُوفَّق لطريقٍ صحيح لسلك هذا العلم، فيذهب في بُنِيَّات الطريق وعند ذلك لا يتحصَّل له ما يريد ﴾

فأول هذه المسائل التي تكون من عوائق طلب العلم:

عدم التدرج فيه،

فلابد للعلم الشرعي من التدرج فيه، كما أنك إذا أردت أن ترقى الدَّرَج ترقى الدَّرجة الأولى فالثانية فالثالثة فالرابعة فكذلك العلم، من أراد أن يصل للخامسة طاح على رأسه فاندقت عنقه فلم يتحصل على شيء، فيكون مثله كمثل المنبَت لا ظهراً أبقى ولا أرضًا قطع.

كثير من الناس يبدأ ويقرأ في أمَّات الكتب ابتداءً ويترك أوائل العلوم فعند ذلك لا يُوفَّق، ويدل على هذا المسألة ما جاء من تفسير ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وهو أيضًا في البخاري في تفسير الربَّانيين، **قال ابن عباس**: «الربَّانيون الذين يعلِّمون الناس صغار العلم قبل كباره»، فالعلم درجة درجة، يبدأ بأوائله ثم يأخذ ما بعده.

وقد جاء أن أبا بكر المروذي أيضًا جاء للإمام أحمد فقال: الرجل يكون عنده الأيتام. أيتام يعني أطفال صغار، قد يكونون أبناءً له، قد يكونون أبناءً لغيره، قد يكون معلِّمًا أو

غيره. قال: ماذا يبدأ به؟ قال: يسمعهم القرآن. قال: يسمعهم السنة؟ قال: لا. لا يبدأ بالحديث، يبدأ بالقرآن.

انظر كيف التدرج في العلم، يبدأ الإنسان في هذه المسألة، فإنه من المسائل الأساسية أن يبدأ بالتدرج، ومن أعظم الأشياء بل من أوائل الأشياء التي يبدأ بها: أن يبدأ المرء بتعلم نصوص الوحيين الكتاب والسنة.

ووالله أحلف غير حانثٍ أنه لا نور ولا بركة لعلمٍ ليس فيه نور الكتاب ولا السنة، الأصل هما هذان الأصلان: الكتاب والسنة، من بدأ بهما وقضى وقته في تحصيلهما ثم أجاد فيهما ما أجاد، ثم انتقل لسائر العلوم الشرعية والفهوم بعد ذلك فإنه الموفَّق، فلذلك يُبدأ بهما قبل كل شيء.

۞ **الأمر الثاني بعد ذلك: أن يحرص المرء على صغار العلم قبل كباره.** وأضرب لك مثالاً في الفقه وإلا الأمثلة كثيرة جداً، **فإن الفقهاء يقولون: إن الفقه يُنال بأربعة أشياء:**

- يُنال أولاً بالتعليق.
- ثم بالتحقيق.
- ثم بالتدقيق.
- قالوا: وإياك والتلفيق.

كلها وزنها واحد.

قالوا: يُبدأ أولاً بالتعليق، ما هو التعليق؟ أن تأخذ الفقه فروعاً مجرَّدة، تأخذ متناً فقهياً في مذهبٍ ما فتتعلم هذه الفروع فتكون معلِّقاً لها، ولذلك تسمى التعليقة، التعليق.

ثم تعرف هذه الفروع مع دليلها، وهذا يسمى التحقيق، ولذلك صنَّف ابن الجوزي كتابه: «التحقيق لأحاديث التعليق» للقاضي أبي يعلى.

إذن: التحقيق أن تعرف كل مسألة مع دليلها.

ثم تنتقل بعد ذلك للتدقيق، أن تعرف المسألة مع دليلها مع الخلاف العالي أو النازل، فإذا عرفت ذلك بهذه الدرجات الثلاث أصبحت بعد ذلك فقيهاً بمعنى كلمة أنك فقيه بحسب ما يبقى في ذهنك، بعض الناس ينسى بسرعة وبعض الناس يوفقه الله عَزَّوَجَلَّ فيبقى في ذهنه أكثر.

أما أن تنتقل مباشرة وأنت في أول العلم للمرحلة الثالثة فتأخذ مسائل خلافية مباشرة في زكاة الحلي والخلاف فيه، وفي تعجيل الزكاة قبل وقتها، وفي وضع اليدين على الصدر، ثم تأخذ الخلاف والأدلة وأنت لا تعرف باقي أحكام الصلاة والزكاة والصوم؛ فإنك في الحقيقة تكون مثقفاً ثقافة دينية وعالماً ببعض المسائل ولست فقيهاً، الفقيه يعرف الفقه كله.

ولذلك الفقهاء لما تكلموا عن تجزُّؤ الاجتهاد، قالوا: يصح تجزُّؤ الاجتهاد بشرط: أن يكون حافظاً للأصول، آيات وأحاديث الأحكام، وأن يكون عالماً بالفقه كله. لازم، لا يمكن ولا يصح أن يفتي امرؤٌ في الصلاة وهو لا يعرف الإقرار، وهو لا يعرف الجعالة، كيف؟ أنت لست فقيهاً، أنت عارف حكماً وتنقله لكن لست فقيهاً، الفقيه يجب أن يعرف الفقه كله، لأن الفقه مناطه واحد. سبحان الله العظيم! وهناك عشرات الأمثلة بل مئات بل ألوف الأمثلة، قاعدة واحدة في أبوابٍ متفرقة، مثل: حمل المطلق على المقيد إذا اتفق

الحكم واختلف السبب، هذه قاعدة أصولية. وهناك قواعد فقهية، مثل: الفم، تجويف الفم هل هو من الوجه أم من الجوف؟ ومسائل كثيرة تتعلق بالحج وبالصوم، ومسائل كثيرة في هذا الباب.

إذن المقصود في هذه المسألة: التدرج في طلب العلم.

العائق الثاني وله تعلُّق بالأول:

ألا يأخذ المرء العلم عن أهله.

انتبه! هذا العلم -العلم الشرعي- في هذا الدين الإسلام من خصائصه أنه يؤخَذ عن الأشياخ.

يقول عبد الله بن المبارك -كما في مقدمة صحيح مسلم-: «الإسلام من الدين، فإن قيل عمَّن بقي». من أين أتيت بهذه المسألة؟ هاه؟ هذا معنى بقي، يعني حار ولم يجد جوابًا.

الإسناد من الدين، ما كان فقيهٌ قط ولا محدثٌ قط إلا وقد ورث الفقه عن أشياخه والحديث والتفسير ونحو ذلك، والعلوم مردها للاثنين: الفقه والحديث، النصوص الكتاب والسنة والفقه الذي هو الفهم، وما عدا ذلك كل العلوم الشرعية تعود لهذين الاثنين، التفسير مرده لهذا، الأصول مردُّه لهذا، وهكذا.

إذن: لابد فيه من الأخذ عن الأشياخ.

وقد ذكر أهل العلم نكتة في هذه يدل عليها قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما قال: «**إن العلم لا يُنتزع انتزاعًا من قلوب العلماء، وإنما يُنتزع العلم بموت العلماء، فإذا مات العلماء اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علمٍ فضلوا وأضلوا**»، انظر كيف، قال: إذا مات العلماء اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً. **أي:** أخذوه من غير علمٍ، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيّن أن في آخر الزمان يفشو القلم، كُلٌّ يكتب، ويكثر القُرَّاء ويَقِلُّ الفقهاء،

فكل الناس متعلمون، والقرآن باقٍ إلى قيام الساعة، لم يُرفع القرآن من قلوب الناس، هو بين أيديهم باقٍ، الكتب ستكثر في آخر هذه الزمان، كل هذه أخبر بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكن قال: سيذهب العلم، لأن العلم لابد أن يؤخذ من أشياخه. لابد من أشياخه، وقد رأيت أحد المشايخ في أحد البلدان يقول في المملكة طبعًا، يقول: إني لأسمع الرجل يتكلم الكلمة عشر دقائق فأعلم هل هذا الرجل أخذ علمه من مشايخ أو من كتب. سبحان الله! يُعرف من لهجته، هذا الشيخ يقول لي، يقول: أعرفه من لهجته. أعرف من لهجته إن كان أخذ علمه من مشايخ أو من كتب.

ومن توفيق الله عَزَّوَجَلَّ للمرء: أن يُرزق شيخًا موفَّقًا.

يقول أيوب السختياني - وهو من شيوخ مالك صاحب الموطأ الإمام مالك إمام دار الهجرة عليه رحمة الله -: «إن من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ على الحَدَث -الذي هو الشاب الصغير- والأعجمي إذا أسلم أن يُوفَّقا لشيخٍ من أهل السنة». شيخ من أهل السنة يدلُّه على العلم والطريقة الصحيحة في تحصيل العلم.

ويدل لذلك أيضًا ما جاء من حديث ابن مسعود وابن عباس بنحوه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تزال هذه الأمة بخير ما أخذوا العلم عن الأكابر**» يعني: أخذوا علمهم عن أكابرهم علمـًا، وأكابرهم سِنًّا، وأكابرهم فضلاً وقدراً.

وإذا عظَّم المرء أشياخه دلَّ على توفيقه، **يقول الإمام مالك**: «ما أفتيت حتى شهد لي سبعون معمَّمًا في مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أني أهلٌ لهذه الفتوى»، هم الذين يعرفون، يقول ابن ناصر الدين: ولم يكُ يتعمَّم في ذلك الزمان إلا فقيه.

لا يعرف قدر الشخص ويقوِّمه إلا أشياخه، إن أثنى عليه أشياخه فكذلك، وإن منعوه وكانوا صادقين.. لأن المشايخ الذي يجلس معهم ويلازمهم يعرف، يقول: يا ولدي، أنت حدك معروف، لا تتجاوز حدك، من متى ما شاء الله بدأت تصبح شيخاً؟ فيعرف المشايخ طلابهم الذين يقاربهم، ويعرف الذي يحق له الفتوى والذي لا يحق، وهكذا.

أنا قصدي من هذا أن الأخذ عن الأشياخ أصل من أصول الدين ولابد منه في هذه الشريعة، لأن الإسناد من الدين في هذه الأمة، ولسنا نأخذه من صحفٍ ولا من صحائف وكتب، وإنما يؤخذ من أهله.

من آثار التوفيق للشيخ: أن الشيخ هو الذي يدلُّك على الطريق، ولذلك بعض أهل العلم الشيخ محمد بن عثيمين يذكر في «كتابه العلم» يقول: إذا أردت أن تقرأ على شيخ لا تقل له أنا أقرأ. اذهب قل له: ماذا أقرأ عليك؟ هو الذي يعرف الكتاب الذي هو يستطيع أن يشرحه، ويعرف ما هو الكتاب الأنسب في البلد، لكل بلدٍ كتب تناسبه وطريقة تفقهٍ اعتادوا عليها، والأنسب للشخص وما الذي ينقصه.

الأمر الثالث: أنه لابد من معرفة أصول هذا العلم،

فإن لكل علمٍ أصولاً وفروعًا،

ولابد من التفريق بين الأصول والفروع، والمراد بالأصول أي: ما تُبنى عليه أصول هذا الفن، فعلم الحديث مثلاً تُبنى أصوله على علم العلل وعلوم الحديث المتنوعة المعروفة التي جمعها أبو عمرو بن الصلاح في كتابه «المقدمة». فهذه أصوله.

أصول الفقه قد تكون أصولاً بالمعنى التي يُستنبط بواسطتها الحكم وهي أصول الفقه، أو يُستنبط منها الحكم وهي القواعد الفقهية، فهي أصول، ولذلك الأصول قد تكون بمعنى القاعدة الأصولية التي يُستنبط بها الحكم، وقد تكون المناط وهو الضابط أو القاعدة، فهذه كلها تسمى أصولاً، أصول الفن وعلمه.

وهنا مسألة مهمة تطرق لها العلماء قبل: هل المرء يبدأ بتعلم الفروع ثم يتعلم الأصول بعده، أم أنه يتعلم الأصول ثم يتعلم الفروع بعده؟

ذكر ابن مفلح في كتابه «أصول الفقه» أن فيها روايتان عند الأصحاب، وأن القاضي أبا يعلى يرى أن الأولى تقديم معرفة الفروع، وأما ابن عقيل أبو الوفاء تلميذه فيرى أن الأولى تقديم معرفة الأصول.

والصحيح أن الأولى أن يبتدئ المرء بمعرفة الأصول التي هي الكتاب والسنة، لأنها تُبنى عليها الأحكام، ثم يعلم الفروع الكثيرة، ثم يستطيع بعد ذلك أن يستنبط منها أو يفهم عليها ويطبق عليها الأصول التي يتعلمها بعد ذلك، فإن الفروع مهمة بعد معرفة أصول

الكتاب والسنة.

وهنا مسألة فقط لكي نقف عند قضية الأصول ثم أتجاوزها لغيرها، وهي مسألة حفظ المتون.

فإن مسألة حفظ المتون مهم جداً، ومن زعم أن من حفظ متناً فإنما زاد في السوق نسخة فهو جاهل لا يعرف العلم، كل العلوم تحتاج إلى متون، كما يقول التُّستري:

وبعد فإن الفقه عظيم المنزلة قد اصطفى الله خيار الناس له

لكنه بل كل علم يوضَع بدون حفظ لفظه لا ينفع

لابد من حفظ المتون، لأن حفظ المتون تفيد في معرفة الفروع الكثيرة، وفي استظهار مواضعها من الكتب، فإنَّ كثيراً من الناس تأتيه لحظات كثيرة ينسى ولا يستطيع الاجتهاد فلا يبقى في ذهنه إلا ما حفظ.

كان أحد المشايخ -عليه رحمة الله- يسمعت منه وهو فوق الثمانين، يقول: يا عبد السلام، كل ما تعلمته في الثلاثين السنة التي مضت يعني بعد أن تجاوزت الخمسين كله نسيته، ما بقي في ذهني الآن واضحًا صافيًا إلا ما حفظته صغيراً في العشرين أو قبلها أو بعدها. ما حفظته. لذلك لا تستسهل الحفظ، لا تستسهل خطر الحفظ فإنه مهم جداً.

وبعض الناس يسهِّل الله عَزَّوَجَلَّ عليه حفظ المنثور، وبعضهم يسهِّل الله عَزَّوَجَلَّ عليه حفظ المنظوم، ولكن الإيغال فيه يجعل الشخص لا يعتمد على الفهم، وإنما يوغل فيه لذلك ترى بعض الناس إذا تكلم قلت له المسألة قال: قال الناظم. ما الدليل عليها؟ قال الناظم. كل هذا غير صحيح، مسائل كثيرة جداً، قال الناظم، لا أريد أن أمثِّل لكي لا نخرج

عن موضوعنا.

المسألة قبل الأخيرة وهو مسألة أن من عوائق العلم: عدم معرفة لغته.

واللغة نوعان:

- لغة عامة.
- ولغة خاصة بكل علم.

أمّا اللغة العامة فإنَّها اللغة العربية، ولذلك أجمع فقهاء المسلمين وعلماء الأصول على أنَّه لا يجوز لمجتهدٍ أن يجتهد إلا أن يكون عالمـًا بالعربية، لابد أن يكون عالمـًا باللغة العربية، وقد نص على ذلك الإمام الشافعي -عليه رحمة الله-، فإنه ذكر في «كتاب الرسالة» كلامـًا طويلاً في فضل هذه اللغة، وأن معرفتها من الدين، وأنه لا يمكن أن يكون المرء فقيهـًا إلا أن يكون عالمـًا بها. لا يمكن أن يستنبط من الكتاب والسنة شيئًا إلا أن يكون عالمـًا بها، نَعَم؛ قد يكون امرءاً أعجميـًا لا يفقه من العربية شيئًا، فإن أفتى أفتى عن تقليدٍ ونقل ولا يمكن أن يفتي عن علمٍ أبداً، لابد من المعرفة بها، ولذلك معرفة اللغة شرطٌ، وكلما زاد المرء في معرفتها كلما كان ذلك دليلاً -بأمر الله عَزَّوَجَلَّ- على توسع علمه الشرعي، وأما النهاية فيها فلا يمكن، حتى لقد قال الشافعي في «كتاب الرسالة»: «وأما العربية فلا يحيط بها إلا نبيٌّ». معرفة الغريب وكمال اللغة العربية لا يحيط بها إلا نبي، لا ابن جني، لا حماد الراوي، لا الأصمعي، لا فلان، لا فلان من علماء اللغة، كلهم لا يمكن

أن يحيطوا بجزءٍ من العربية، ولكن يفتح الله عَزَّوَجَلَّ على أناسٍ ما لا يفتحه على آخرين، ولذلك لابد من اللغة العربية والعناية بها، لابد منها، ولذلك عُدَّ معرفة علوم الآلة كالأصول من المسألة التي قبل قليل، أصول الفقه من علوم الآلة، من معرفة الأصول، وعلوم الآلة من النحو والبلاغة والتصريف من الثاني.

أضرب لك مثالاً واحداً والأمثلة بالعشرات بل بالمئات: جاء حديثٌ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ذكاةُ الجنين ذكاةْ أمِّه**»، لم أعرب تلك الكلمة، لم أرفعها ولم أنصبها، عن قصد، أُعْرِب: يعني أشكِّل، «**ذكاةُ الجنين ذكاةْ أمِّه**».

هذا الحديث روي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بروايتين، أو نَطَقه بعض الناس نطقين. فبعضهم يقول: (ذكاةُ الجنين ذكاةَ أمِّه)، وبعضهم يقول: (ذكاةُ الجنين ذكاةُ أمِّه)، هل يختلف الحكم؟

يختلف. كيف؟

من قال: (ذكاةُ الجنين ذكاةُ أمِّه) هذا هو الصحيح، **بمعنى:** أنك إذا ذبحت شاة في بطنها حملٌ فذكَّيت أمه فقد ذكَّيت الجنين؛ لأنه إذا ذُكِّيت الأم فقد ذُكِي الجنين، ابقر بطنها وخذ الجنين وكله، اشوِه، يجوز أكله، (ذكاةُ الجنين ذكاةُ أمِّه).

ومن قال (ذكاةَ) نَصَبها على الحالية، **أي:** يُذكَّى الجنين كما تُذكَّى أمُّه، فيجب أن تُخْرِج الجنين وفيه حياة مستقرة ثم تقطع منه الودجين أو اثنين من أربعة، أو ما أنهر الدم، وهو قول الشيخ تقي الدين وهو أوسع الأقوال، بشرط أن يكون في اللبأة.

فالمقصود: أن حركة واحدة يتغير فيها الحكم، حللت وحرمت ما في بطن هذه الشاة.

فالمقصود من هذا: أن اللغة العربية مهمة جداً، ولابد من معرفتها، ومن ظن أنه يمكن أن يستغني عن اللغة العربية بنحوها وصرفها وسائر فروعها فإنه في الحقيقة قد نقص من العلم شيئًا، ولذلك بعضهم يتندر فيقول: إذا رأيت فقيهًا يلحن في كلامه فاعلم أن من فقهه نقصٌ بمقدار لحنه.

طبعًا اللحن ما أحد يسلم منه بعد القرن الثاني الهجري إلا النادر من الناس.

إذن: انتهينا من اللغة بالمعنى العام.

هناك من العوائق المهمة جداً: اللغة الخاصة بكل فنٍّ، فإن لكل فنٍّ من الفنون لغته، ولذلك نحن الألفاظ لكي نعرف اللغة، فإن أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها لغتها الخاصة بها، ولذلك فإننا نعرف كتب الغريب، ألا تعرفون كتب الغريب؟ غريب حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه لغة حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الفقه له لغته، الآن الفقهاء عندما يقولون: الضمان. ما الذي يقصدون به؟ من الفقهاء -وهو الغالب عندهم- من يقصد بالضمان ضمان المتلفات المالية، وهو التعويض المالي، فإذا أتلفت شيئًا اضمنه. ومن الفقهاء -وهو طريقة الحنابلة- من يسمِّي الكفالة ضمانًا. طيب، الكفالة عندهم ما هي؟ عند الحنابلة. الكفالة هي الكفالة بالنفس فقط.

إذن: يجب أن تعرف المصطلحات، ما الذي قصدوه؟ وقد ذكر الشيخ عبد القادر بن بدران الدُّومي -عليه رحمة الله- من علماء دُومة بجانب دمشق، المتوفى سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة -أنه قال: كنت أحضر عند شيخ فسُئل هذا الشيخ: من المدبَّر؟ جاؤوا باب المُدبَّر في باب العتق، فقيل له: من المُدبَّر؟ قال: فقال الشيخ: هاه؟ وحك رأسه.

ثم قال: المُدبَّر كذا وكذا. أتى بمعنى بعيد. **المُدبَّر هو**: الذي يعتقه سيده عن دُبُر، يقول: عبدي فلان حُرٌّ إذا أنا مِت. فهو وصية. ولكن هذا الشيخ لأنه لا يعرف كلام أهل العلم فإنه ذهب لشيءٍ بعيدٍ جداً. ولذلك لابد من معرفة مصطلحاتهم من حيث الألفاظ، لابد من معرفة مصطلحاتهم من حيث الأسماء أيضًا حتى الاسم، فإن الفقهاء يسمون بعض العلماء بأسماء مرموزة لهم، ويقولون: إن أبا عمرو ابن الحاجب الفقيه الأصولي المشهور المالكي أخطأ في كتابه «جامع الأمهات» في أربعة مواضع، فنسب لأبي الوليد الباجي ما يُنسب لأبي الوليد ابن رُشْد الجد؛ لأن عند المالكية إذا قالوا: القاضي أبو الوليد؛ فالمقصود به الباجي، وإذا قالوا: الشيخ أبو الوليد فالمقصود به ابن رشد الجد. أخطأ في أربعة مواضع فنسب لهذا ما لهذا.

وهذا الخطأ ضرَّه، **لأنهم يقولون**: إن ابن الحاجب قيل له: إنك أخذت كتابك هذا من كتاب «الجواهر» لابن شاس المالكي، وهو مطبوع أيضًا، كلها مطبوعة. فرد عليهم، قال: ليس بصحيح، أنا كتابي ليس من كتاب «جواهر العقود» لابن شاس. فجاء الذين بعده شرحوا الكتاب فقالوا: إن ابن شاسٍ أخطأ في أربعة مواضع فأخطأت في نفس الخطأ. فدل على أنك نقلتها منه.

فانظر على جلالة قدر أبي عمرو ابن الحاجب أخطأ في معرفة هذه، لذلك يجب أن نعرف أسماء المصطلحات.

مثلاً الشافعية إذا قالوا: الأستاذ أبو إسحاق فهو الإسفراييني، وإذا قالوا: الشيخ أبو إسحاق فهو الشيرازي صاحب «المهذَّب».

الفقهاء الحنابلة إذا قالوا: الشـيخ فإنما يعنون به ابن قدامة، ثم المتأخرون يعنون به الشيخ تقي الدين ابن تيمية -عليه رحمة الله-.

وهكذا الإمام، مر علي أحد الطلاب يقول: وقال الشـافعي، وقال الشـافعي، وقال الشافعي. من أين أتيت بهذا الكلام؟ لأني وجدت في كتب الشافعية يقولون: قال الإمام. إذن المقصـود الإمام الشـافعي لأنهم شـافعية. هذا غير صـحيح، الشـافعية إذا قالوا: قال الإمام؛ فيعنون به إمام الحرمين الجويني صاحب نهاية المطلب.

إذن: يجب أن نعرف حتى المصطلحات.

إذن: معرفة اللفظ، معرفة المصـطلح، كل هذا من اللغة. معرفة أحيانًا قضـية ترتيب الأبواب مهم جداً، بعض الناس ينظر في المسـألة ولا يعرف أين يجدها، وهذه المسـألة تنقلني لمسـألة مهمة جداً لعلي أختم بها حديثي أو تبقى الجزئية بعدها، **وهي مسـألة: أن العلم نوعان:**

- علمٌ بالقوة.
- وعلم بالفعل.

العلم بالفعل هو الذي في صدرك.

وليس علمًا ما حوى القِمَطر   وإنما العلم ما وعاه الصدر

يقول إبراهيم النخعي: «العلم ما دخل معك في الحمام». ليس الذي تقرؤه في كتاب. هذا العلم الذي في الصدر لا يحصل إلا بحفظ وبمراجعة وكدٍّ للذهن.

وهناك نوعٌ آخر من العلم كل الناس محتاجون إليه وهو العلم بالقوة، **يعني**: تُسأل

يقول لك: ما أعرف، لكن أنظرني قليلاً، يذهب ويخرج الكتاب ويعطيك المسألة، يذهب ويبحث في الجهاز الآن عن طريق الموسوعات الإلكترونية ويستخرج لك إياها. مهم جداً أن يُعنى طالب العلم وخاصة في زماننا هذا بالعلم بالقوة، وعندهم أن القوة نوعان، عند المناطقة **القوة نوعان**:

- قوة قريبة.
- وقوة بعيدة.

القوة القريبة تعطيه المسألة خمس دقائق طلع لك المسألة، أو عشر دقائق. القوة البعيدة يبقى أسبوعين حتى يجد المسألة.

وهذه القوة تُنمَّى، قوة البحث، وهذا البحث مقصود، وأغلب الناس ما يستطيع أن يحيط بالعلم، يقول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العلم نقطة، كثَّره الجاهلون بخوضهم»، العلم كَثُر جداً، من قال لك أني أحطت بالعلم كله لا يمكن، لا يمكن أبداً، لا يمكن. الآن حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسألة واحدة مثلاً حديث الإشارة بالإصبع ورد فيها حديثان فقط: حديث عبد الله بن عمر وحديث عبد الله بن الزبير فقط. طبع أحد الإخوان في الطائف أربع رسائل مؤلَّفة في هذا الكتاب، أربع رسائل في مجلد لطيف، هذه التي جمعها، وغيره طبع غيرها أو كتب غيرها في مسألة واحدة.

قراءة الفاتحة للإمام، هو العمدة فيها حديث جابر وحديث عبادة، هي الأصل فيها والباقي شواهد لها ومتابعات، أُلِّف فيها أكثر من خمسةٍ وعشرين كتابًا، هل يقرأ المأموم...؟

إذن: زاد العلم، فلذلك أصبح العلم بالقوة مهم جداً، تعرف أين مظان المسائل، ما المعتمد من الكتب وغير المعتمد، ما المتأخر وما المتقدم، ما الصحيح وغير الصحيح. وهكذا من مسائل الكتب، والحديث عن كيفية البحث والعلم بالقوة طويل جداً يحتاج إلى محاضرتين أو ثلاث.

۞ **المسألة الأخيرة وأختم بها**، وأنا أحب دائمًا أن أنقل كلام الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لأن هذا الرجل فقيه بمعنى الكلمة، وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن لهذا الفتى -يقصد الشافعي- مِنَّة في عنق كل أصحاب الحديث. لأنه فقيه مع تعظيمه لنصوص الكتاب والسنة، -عليه رحمة الله-.

يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي لمن طلب العلم أن يدقِّق فيه لكي لا يضيع»، من تعلَّم علمًا فَلْيُعْنَ أن يدقق فيه وأن يبحث فيه، وأن يوغل النظر لكي لا يضيع هذا العلم ويُفقد، ولذلك فإن هذا الزمان يقولون هو زمان أن تعرف من كل شيءٍ شيء، وتعرف من شيءٍ ما أقول كل شيء، لأنه لا يمكن، وإنما تعرف من شيءٍ أكثر أشيائه فإنك تستطيع.

فلذلك لابد في هذا الزمان مع كثرة العلوم وكثرة المشغلات للذهن أن تتخصص في فنٍّ واحد، تدقق فيه وتحيط به مع إحاطتك للعلوم الأخرى الشرعية، وتتوجه له بِكُلِّيَّتِكَ لتدقق فيه وتكون دقيقًا.

أيضًا أنقل كلمة أخرى للشافعي -واعذروني في محبة هذا الرجل، فإن الأئمة أحبُّوه قبل- فإن الشافعي يقول: «الفقه كالتفاح الشامي، سهل التناول». أنا لم أرَ شجرة التفاح في حياتي، لكن فهمت من هذا الأثر أن الشجر الشامي أو التفاح الشامي شجره قصير، وأن كل امرئٍ يستطيع أن ينال ثمرته، ليس طويل الشجرة، فكذلك العلم الشرعي ومنه الفقه كُلُّنا يستطيع أن يتناوله، لا يغرنك كثرة الكلام الذي قلته قبل قليل وكثرة المحفوظات التي يُطْلَب حفظها من طالب العلم من الكتاب والسنة وغيرها، فإن الشيخ تقي الدين يقول لما رد على كلام الأصوليين قالوا: إنه يلزم حفظ آيات الأحكام. قال: لا، ليس صحيحًا، لا

يجوز لمجتهد أن يجتهد إلا أن يحفظ القرآن كاملاً وغير ذلك. فإنك إن لم تستطع العلم كله فَنَلْ من العلم بعضه، ولا تكن كما قال المأمون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الناس بين اثنين: إما طالب علم وإما قانع بجهل». لا تكن قانعًا بجهل، فاطلب من العلم ولو أقلَّه.

واعلم أنك كلما زدت فيه كلما زاد فضلك وخيرك ودنوُّك من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يبعد عليك الطريق وجادته، فإن من سلك أول الطريق كاد أن يَصِل لمبتغاه، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة»**، وهذا الحديث نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات تفيد العموم في الأوصاف لا في الأشخاص، فدل على أن للعلم طرائق مختلفة، فقد ينجح مع شخص طريقٌ ولا ينجح مع الآخر ذاك الطريق، ولكن لهذا الطريق معالم واحدة هي التي ذكرتها قبل قليل.

ولذلك يجب أن المرء يعلم أن الناس ليسوا في درجة واحدة في العلم، ولذلك عُنِي العلماء بذكر طبقات الفقهاء وطبقات المحدثين، فالمشهور عند الفقهاء أن الفقهاء على ثمان طبقات أو تسع، وأظن ابن كمال باشا أوصلهم إلى ثلاثين طبقة.

فمن الفقهاء من هو مجتهدٌ مطلَقٌ كالأئمة الأربعة المتبوعين -عليهم رحمة الله-، ومنهم من يكون مجتهداً دون ذلك، ومنهم من يجوز له أن ينقل الفتوى، ومنهم من يكون فقيهًا لكن لا يجوز له أن يفتي ولا أن ينقل فتوى غيره.

فإذن: ليس كل طلاب العلم في التحصيل واحد ولا في البذل سواء. أنا أتيت بذلك لكي نعلم أن التوفيق أولاً وأخيراً من الله عَزَّوَجَلَّ.

فنسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يتولانا بهداه، وأن

يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات، وأسأله جَلَّوَعَلَا أن يرحم ضعفنا ويجبر كسرنا، وأن يجزي والدينا خير ما جزى والداً عن ولده، وأن يغفر لهما تقصيرهما في حقه جَلَّوَعَلَا، وأن يغفر لنا تقصيرنا في حقهما، وأسأله جَلَّوَعَلَا أن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء، وأن يجعلنا من أهل العلم الذين هم أهل الله وخاصته، وأسأله جَلَّوَعَلَا أن يديم على بلادنا الخير والأمن والإيمان.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هل عند الإخوان تعليق أو شيء؟

- **مداخلة: ..**

الشيخ: يقول الطوفي أبو سليمان، نجم الدين الطوفي في «كتابه الإكسير»: «إن الناس والمفسرين عندما نظروا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ نحوا مناحي شتَّى وأغفلوا أهم مقصدٍ للقرآن بعد المقصود الدلالة على الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده وهو الإعجاز في بلاغته»، فيجب على المرء أن يُعنى بهذا الكتاب، كتاب الله عَزَّوَجَلَّ والنظر في لغته.

۞ **أول وسيلة: أن المرء يُعنى بمعرفة الغريب**، أول شيء، طبعًا ليس بالترتيب، ومعرفة الغريب تكون بالقراءة في كتب الأوائل من اللغة والشعر، فتقرأ في كتب الأوائل التي فيها الغريب لكي تعرف المترادفات وتعرف دلالة اللفظة، فإن اللفظة تعرفها ولكن إذا جاء سياقها في أكثر من جملة عرفت ما معناها.

أما الرجوع للمعجمات نَعَم هو طريق لكن صعب أنك تحفظ المعجم أو تعرفه،

صعب جداً، لكن القراءة هي التي تكسبك المعرفة.

إذن: هذا الأمر ما يتعلق بالغريب، أن تعرف الغريب وألفاظ اللغة، وكما قلت لك الشافعي يقول: لا يمكن أن يحيط أحد حتى بغريب اللغة. وهو يتكلم عن الغريب.

الأمر الثاني: أن تعرب الكلام، ونعني بالإعراب: عدم اللحن، وقد كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقوم في المسلمين خطيباً لما ولي الخلافة فيقول: «أيها المسلمون، أعربوا القرآن». لم يقله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لماذا؟ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخاطب عرباً أقحاحاً، وإنما دخل الأعاجم في آخر عهد أبي بكر، ألم يَقُل عمر لما طُعِن من أبي لؤلؤة المجوسي لابن عباس: ذاك الذي كنتم تجادل أنت وأبوك عنهم وهو إدخال الأعاجم إلى المدينة، فكان عمر يرى ألا يدخل الأعاجم إلى المدينة ولكنه رضخ لقول الصحابة فدخل الأعاجم. فكان أبو بكر يقول: أعربوا القرآن. وكان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يضرب ابنه إذا ترك إعراب القرآن ولا يضربه على ترك الحفظ.

فالعناية بإعراب الكلام، الإعراب.

من وسائل معرفة الإعراب: معرفة النحو، ولكن من الناس من يُعرِب ولا يعرف من النحو إلا بعضه، وأعرف رجلاً صيني الأصل ويعيش في مكة يقول: يا عبد السلام، لا أعرف من النحو شيئاً إلا لماماً، ولو كلَّمتني بالعربية وكلمته لا يلحن، وهو من طلاب الجامعة. يقول: أنا أُكثر من قراءة كتاب الله. هذا كلامه، وأقرأ على المشايخ، يقرأ بصوتٍ عال، فإذا قوم اللسان لأنها مَلَكة. يقولون: إن الأصمعي لما جاء لجزيرة العرب يتعلم اللسان العربي نقصت نفقته، فأراد أن يتكسب من تعليم الناس القرآن، الصبيان، فلما أراد

أن يعلمهم القرآن جاء لصبيٍّ يعلمه، فعلمه سورة المسد، فقال له: اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، قال بسم الله الرحمن الرحيم. تبت يدا، قال الولد: تبت يدان. يا ولد، تبت يدا. تبت يدان. تبت يدا. هو ظن أن الولد يلعب، قال: تبت يدان. قال: قل تبت يدا أبي لهب. قال: تبَّت يدا أبي لهب. صبي عمره خمس ست سنوات على أقصى تقدير، كيف لسانه لم يستطع اللحن مع أنه لا يعرف النحو؟ إنما هو مع كثرة الكلام. ولذلك العرب لم يكن عندهم نحو، قيل: إن أول من وضع النحو هو علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقيل: إنه أبو الأسود الدؤلي بأمر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والمعنى واحد، فإن لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دوراً في ذلك.

فالمقصود: أن كثرة الكلام باللسان العربي وكثرة سماعه والقراءة به تجعل الشخص لا يلحن.

إذن: تكلمنا أولاً عن الغريب، وتكلمنا ثانياً عن اللحن وهو الإعراب، ومن وسائله: معرفة النحو، وليس هو الوسيلة الواحدة، ولكن لابد أن يُنمَّى بالكلام وبالقراءة عن المشايخ وبقراءة القرآن.

❁ **الأمر الثالث: معرفة دلائل الألفاظ.** والأصوليون ذكروا من التقعيد في معرفة دلائل الألفاظ الشيء الكثير الذي هو علم البلاغة أو هو جزءٌ من معرفة البلاغة، ولذلك الأصوليون تكلموا عن فحوى الخطاب ولحن الخطاب ودليل الخطاب، وتكلموا عن المنطوق والمفهوم، مفهوم الموافقة أو مفهوم المخالفة، ومفهوم المخالفة عشرة أنواع أو أكثر: مفهوم العدد، مفهوم مخالفة العدد، مفهوم اللقب، مفهوم الوصف، مفهوم العَلَم. مفهوم الشرط، مفهوم الحصر، وهو أقواها، وهكذا.

إذن: هذه دلائل لفظية، من أين أتوا بها؟ من معرفة البلاغة، دلائل الألفاظ، هذه تُعرف من الفهومات والشروحات التي تُقرأ، فالقراءة في اللسان العربي مهم جداً، والشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول شأنه ماذا كان؟ ذهب لهذيل قبيلة هذيل المعروفة وما زالت بجانب مكة، ذهب عندهم وتعلَّم اللسان العربي عندهم، فكان من أعلم الناس بلسان العرب.

وألَّف أبو بكر البيهقي كتاباً طُبِع سماه: «الاحتجاج بالشافعي في اللغة». فإن كلام الشافعي حُجَّة مع أنه جاء بعد الاحتجاج باللغة، فإن النحويين يقولون: إن كلام العرب حُجَّة، إن كانوا من أهل الأمصار فإلى سنة مائة من الهجرة، وإن كانوا من أهل البوادي فإلى سنة مائة وخمسين، والشافعي توفي سنة بعد ذلك مائتين وأربعة أو بعد ذلك.

فالمقصود من هذا الكلام: أن كثرة السماع وكثرة الكلام هي التي تجعل اللغة.

أنا أقول هذا لماذا ركزت عليه؟ لأننا نسمع -للأسف- من بعض الناس عدم عناية باللغة العربية وإحجام عنها وعدم حفظ لأبيات الشعر، فإن أبيات الشعر مفيدة كثيراً جداً.

ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لم أكُ أعرف ما معنى: (الحمد لله فاطر السماوات والأرض) حتى اختصم عندي أعرابيان، فقال أحدهما للآخر: أنا فطرتها قبلك. أي: شققتها. فعرفت أن (فاطر السماوات والأرض) أي: شاقُّهما. **أي**: كانتا متصلتين فشقَّهما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالمقصود من هذا: أن معرفة اللغة مهمة، والناس يختلفون بين شخصٍ وآخر، ولذلك قال غير واحد: إني لأرى الرجل فيعجبني هيئته، فإذا تكلم فلحن سقط من عيني.

كثير من الإخوان الذي يُعنى بالعربية يقول: أجلس أسمع الكلمة في المسجد، فإذا لحن الذي يلقي الكلمة كأني مضروبٌ بالسياط، فأخرج، ما أستطيع الجلوس.

فانظر كيف أن اللحن مُضِرٌّ في المرء. ومن منا لا يلحن.

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ للجميع التوفيق والسداد،

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.